

## الحوار الثقافي في ظل الشراكة الأوروبية متوسطة: بين متطلبات تفعيل التعاون وتحقيق التنمية

أ. زهيرة مزارة

باحثة بقسم العلوم السياسية ، جامعة الشلف ، الجزائر

### المخلص:

شهد النظام الدولي العديد من التغييرات أثر بروز التهديدات العابرة للقومية والتي أصبحت تشكل خطراً على الأمن الوطني والدولي ، ولمواجهة هذه التحولات وأستيعابها وضع الإتحاد الأوروبي في أجندته واهتماماته الحوار الثقافي بكونه العامل الأساس في تقارب شعوب الضفتين وما يمكن أن تحققه الثقافات كعنصر قوة في مواجهة التهديدات والمخاطر التي تواجهها دول الضفتين الشمالية والجنوبية. يعد البعد الثقافي في ظل الشراكة الأوروبية متوسطة أهم المحاور التي يمكن من خلالها تعزيز التعاون بين الضفتين في مختلف الميادين السياسية ، الأمنية ، الاجتماعية، الاقتصادية. لذلك فالحوار الثقافي بالنسبة للاتحاد الأوروبي يشكل مسألة أساسية للتغلب على المخاطر الأمنية ووسيلة تقارب مع دول الضفة الجنوبية من خلال تنفيذ برامجها المتفق عليها سابقاً بطريقة تقديم المساعدات المالية والاقتصادية وزيادة التفاهم المتبادل وسد الفجوة بين الضفتين ، في إطار الاتفاقيات التي تم توقيعها من قبل الاتحاد الأوروبي ودول الضفة الجنوبية في مجال الشراكة الأوروبية متوسطة التي تبنت مختلف المجالات من أجل تحقيق التنمية للضفة الجنوبية . أما إشكالية البحث فتكمن في السؤال عن مدى فعالية الحوار الثقافي في ظل الشراكة الأوروبية متوسطة في تحقيق التنمية ؟.

*Researcher at Department of Political Science.*

### Abstract

The international system has seen many of the impact of changes emergence of trans-nationalism that has become a threat to national and international security, and the face of these shifts and changes and understand the threats, the EU set the agenda and interests of cultural dialogue being a key factor in the convergence of the peoples of the two banks and the exchange of cultures in order to meet stemming threats South West.

The cultural dimension of the Euro-Mediterranean Partnership in light of the most important themes in which they can strengthen cooperation between the two banks in the various fields of political, security, social, and economic.

So cultural dialogue for the European Union is a key issue to overcome the security risks and a means rapprochement with the West South countries through the implementation of its programs previously agreed a way to provide financial ,and



economic aid and increase mutual understanding and bridging the gap between the two banks, as part of the agreements signed by the European Union and the South West in the area of the Euro-Mediterranean partnership, which has adopted various fields in order to achieve development of the West and South, and the problem of search lies in the question of how effective cultural dialogue under Euro-Mediterranean partnership can achieve development?

تعد العلاقات بين الدول و الحضارات من أهم الموضوعات المطروحة على الساحة الدولية، لاسيما في ظل التغيرات الدولية والإقليمية الراهنة ، التي أضحت تتسم بعدم الإستقرار السياسي وانتشار التهديدات العابرة للقومية ، مما دفع بالدول المتوسطية إلى فكرة البحث عن توثيق روابط التعاون في المجالات الاقتصادية ، السياسية، والاجتماعية والثقافية، وزيادة الإعتماد المتبادل لمواجهة التحديات التي تهدد كيان الدول واستقرارها. وإزاء تصاعد حدة التهديدات أصبح من الضروري على دول العالم القيام بتكثيف جهودها والبحث عن آليات واستراتيجيات جديدة تمكنهم من الوصول إلى حلول للقضاء على مختلف التهديدات والمخاطر التي تواجهها دول الضفتين الشمالية والجنوبية ، كما هو الحال بالنسبة للتقارب بين ضفتي المتوسط، الذي يعبر عنها الشراكة الأوروبية المتوسطية القائمة على حوار و تعاون ، وتعززه روابط الجوار و التوازن الحضاري المشترك بين الاتحاد الأوروبي ودول شمال إفريقيا الذي فرضه الوضع الإستراتيجي القائم و تكامل المصالح و ترابطها من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية والسياسية والبشرية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، هذا الإهتمام راجع للمبادرات التي اقترحتها دول الإتحاد الأوروبي للتعاون مع دول شمال إفريقيا ، وتجسد ذلك في توقيع اتفاقيات برشلونة الذي تضمن مجموعة من المبادئ تهدف إلى تعزيز التبادل، وتقديم المساعدات المالية والتقنية لدول شمال إفريقيا، فضلا عن تعزيز الحوار الثقافي بين شعوب الضفتين بكونه من أهم المجالات التي يمكن أن يحقق من خلالها الأهداف المنفق عليها في الاتفاقيات الموقعة بين الطرفين سواء كانت ثنائية أو جماعية.

### إشكالية البحث:

ما مدى فعالية الحوار الثقافي في ظل الشراكة الأوروبية المتوسطية في تحقيق التنمية ؟

### محاور الدراسة:

- ١/التأصيل التاريخي لعلاقة الحضارتين (الحضارة العربية الاسلامية ، الحضارة الغربية).
- ٢/ الحوار الثقافي بين ضرورة التقارب بين شعوب الضفتين وتحقيق التنمية البشرية.
- ٣/ مستقبل العلاقة بين الحضارتين في ظل الشراكة الأوروبية المتوسطية .



## المحور الأول: التأصيل التاريخي لعلاقة الحضارتين (الحضارة العربية الإسلامية، الحضارة الغربية) - ما المقصود بالحضارة:

تعرف معاجم اللغة العربية الحضارة بأنها نتاج الإقامة في المناطق الحضارية، وما يتبع ذلك من مظاهر رقى علمي وأدبي واجتماعي وسياسي أما أن الحضارة عند كروبر krober هي الأفكار التقليدية المتصلة بالقيم، والأنظمة الحضارية هي وليدة الحديث الاجتماعي الذي يحدد عناصر الحضارة المقبلة التي سيشيدها المجتمع الواحد، ويكمن في الحضارة الجزء المادي الذي يعد وليدها، والذي يتفاعل مع الجزء المثالي منها ليكن الكل الحضاري. أما مارجريت ميد Margaret Mead فتعرف الحضارة بأنها مجموعة صور وأشكال السلوك المكتسبة التي تنقلها مجموعة أو أفراد مرتبطون بتقاليد مشتركة إلى ذرياتهم والوافدين الذين يعيشونهم، ومما تؤكد عليه ان الحضارة لا تقتصر على التقاليد الفنية أو الدينية أو العلمية أو الفلسفية لمجتمع من المجتمعات فحسب، ولكنها تتضمن كذلك التقنية الخاصة بنظمه السياسية، وطرق استخدامه لمعداته اليومية.

أما مفهوم الثقافة فقد حظي بمحاولات تعريفية عديدة، إذ عرفها كل باحث حسب طبيعة البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها ، فتتظر المدرسة الغربية للثقافة على أنها نتاج للفكر الانساني وحرية، في الوقت الذي نظرت فيه المدرسة الماركسية إلى الثقافة على أنها ثمرة مجتمعية كطبيعتها في النظر إلى مختلف الأمور. وأول من وجه الأنظار إلى تعريف الثقافي هو الأنثروبولوجي الانجليزي أدوار تايلور Edward Tylor في كتابه "الثقافة البدائية" ويذكر أن الثقافة بمعناها الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والعرف، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع.

يضع المفكرون الألمان حدا فاصلا بين الحضارة والثقافة ، فالحضارة عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أما الثقافة فتشمل قيم المجتمع العليا وخاصياته الفكرية والخلقية الكبرى. إلا أن هناك بعض المفكرين العرب خالفوا الألمان، إذ يرون أن الحضارة والثقافة كليهما يشيران إلى مناهج حياة أمة من الناس، وأن الحضارة إنما هي الثقافة مكبرة، وأن الدين أهم العناصر المكونة للحضارة، وأن الحضارة ليست متطابقة مع العرق ، كالحضارة الاسلامية تضم مجتمعات مختلفة الأعراق والألوان، وبذلك الحضارة اوسع وحدة ثقافية.<sup>١</sup>

ما علاقة الحضارة بالثقافة ؟

إذا كان مفهوم الثقافة ينزع إلى الخصوصية، فإن الحضارة تنزع إلى العمومية، فالثقافة هي الحضارة الخاصة بأمة من الأمم، لا يشاركها في شأنها أحد، تحمل صيغة هذه الأمة، وتتسم بسماتها، وقد تصب عدة ثقافات في نهر حضارة واحدة. فالثقافة العربية التي ننتمي إليها هي في أدنى مستوياتها مجموع تقاليد وعادات، أما على مستواها الأعلى فهي النهج الذي نهجه الغزالي في الجانب الروحي، وابن رشد في الجانب الفكري، وابن حزم في الجانب الأخلاقي، وابن خلدون في الجانب الاجتماعي.<sup>٢</sup>

فضلا عن علاقة متبادلة بين الحضارة والثقافة يتحدد فيها سلوك الفرد بنمط الحياة السائد في المجتمع، ثم أن أسلوب الحياة بصورة عامة يتشكل عن طريق تصرفات الأفراد في المجتمع، وعليه فإن ثقافة بلد ما إنما هي أسلوب الحياة السائدة في هذا البلد الذي يمكن أن يجسده الإنسان بأقوال وأفعال تستطيع عن طريقها ان تحكم على هوية وانتماءات وقومية ذلك الإنسان<sup>٣</sup>.

### - طبيعة العلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

قد تكون علاقة الشرق بالغرب من أكثر المسائل إثارة للحوار والجدل والتنظير تصدى لها الفلاسفة والسياسيون فانقسموا حولها. ومنهم من نظر إليها نظرة ايجابية متفائلة. ومنهم من رآها علاقات صدام تثير النزاعات والحروب.

### أ- خصوصية الحضارة الإسلامية:

أعتبر بعض المفكرين الغربيين أن المسيحية والإسلام على السواء انفتحا على البيئة الخارجية ، فالحضارة الإسلامية امتدت على أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا وأوروبا، وتميزت الحضارة الإسلامية بتعدد الأعراق و الثقافات. فقد امتدت الحضارة الإسلامية إلى أبعد بكثير من أقصى حدود إذ وصلت إلى الثقافتان الرومانية والهيلينية، فضلا عن تبني واندماج قدرات وعناصر مميزة من حضارات أخرى خاصة في آسيا.

وقد استشهد الدكتور حسين مؤنس في كتابه "الحضارة"، بالآية تدل على التعارف وانفتاح على آخر في قوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا"<sup>٤</sup>. وانطلاقا من الآية الكريمة بنى مؤنس تصوره عن أصول الحضارة وعوامل قيامها وتطورها، وذلك في سياق حديثه عن علاقة الحضارة بالأجناس، وما توصل إليه المؤرخون الغربيون بعدم حصر القدرة على بناء الحضارة بأجناس معينة، وأن الحضارات إنما قامت بمشاركة أجناس متعددة . فالحضارة الإسلامية تأخذ بالطرح القائم على التعارف بين الحضارات، والتعارف هو المفهوم الذي حاولت هذه الآية تحديده وتأكيداه وإبرازه والنص عليه، من خلال سياق وخطاب يؤكد على قيمته وجوهريته، لأن يكون مفهوماً أساسياً، وذلك بالاستناد على الحقائق التالية:

أولاً: الخطاب في سورة الحجرات متوجه بشكل صريح إلى المؤمنين في بداية السورة وفي خاتمتها، وكون الخطاب متوجهاً إلى الناس كافة فهو ناظر إليهم بكل تنوعهم وتعدددهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وإلى غير ذلك من تمايزات ومفارقات.

ثانياً: التذكير بوحدة الأصل الإنساني في قوله تعالى "إنا خلقناكم من ذكر وأنثى"، فالناس مع كل اختلافاتهم وتعددياتهم وتباعدهم في المكان والمعتقد ، إنما يرجعون في جذورهم إلى أصل إنساني واحد. والقصد من ذلك أن يدرك الناس هذه الحقيقة، ويتعاملوا معها كقاعدة إنسانية وأخلاقية في نظرتهم

لأنفسهم، وفي نظرة كل أمة وحضارة إلى غيرها، كما لو أنهم أسرة إنسانية واحدة على هذه الأرض الممتدة.

ثالثاً: الإقرار بالتنوع الإنساني في قوله تعالى "وجعلناكم شعوباً وقبائل"، وهذه حقيقة اجتماعية، وقانون تاريخي نظراً لتوزيع الناس في أماكن متعددة ، ويعيشون في بيئات وجغرافيات ومناخات وقوميات مختلفة ومتعددة لكي يعمرها هذه الأرض، ويتبادلوا ثرواتها، ويستفيدوا من بعضهم البعض في مختلف المجالات الاقتصادية، السياسية، والاجتماعية والثقافية.<sup>٥</sup>

إن الحضارة الإسلامية التي سادت الكون بالعلم والعقل والعدل في نهاية الألفية الأولى ، عرفت بعد ذلك فترة انحدار ثم فترة انحطاط دام قرناً، فهي تواجه في الألفية الثالثة أزمة مزدوجة: من ناحية تبحث عن مشروع نهضوي لتعيش مع العصر، وهذا لن يتأتى بالقطيعة مع الآخر أي مع الدول الغربية ، ولكن بالحوار مع غير سواء مع الدول الأوروبية والدول الآسيوية ولاسيما مع الصين بكونها القوة الصاعدة ، كما يتوجب الفهم للآخر والتعامل معه. من جهة أخرى تعاني من تصاعد العداء للحضارة الغربية التي بدأت منذ انهيار الإتحاد السوفياتي، خاصة ما جاء به صامويل هنتغتون في كتابه صدام الحضارات والذي تزعم وجود خطر من الإسلام لذلك بنى أطروحته على وجوب حرب ونزاعات بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ، وهناك من المفكرين الغربيين من يناشد بقطع العلاقة بين الغرب والعرب بالتركيز على تاريخ ما قبل الإسلام كإبراز الفرعونية في مصر، أو الآشورية في العراق، أو الفينيقية في لبنان، أو البربرية في المغرب والجزائر.<sup>٦</sup>

أما التصور الإسلامي فإنه لا ينظر للصراع مع الآخر أي الغرب كقانون تاريخي مطلق كما تقدمه المدرسة الواقعية بمنظريها ومنهم المفكر "هاننتجتون" الذي يعد من الواقعيين الهجوميين ، لأن الصراع في التصور الإسلامي يأخذ معنى التدافع ، ليس إلا سنة من سنن الاجتماع البشري . ولذا فإن الجهاد في معناه الواسع ليس صراع مع الآخر للقضاء عليه ولكن أداة الدعوة ونشرها نحو هذا الآخر ، ومن ثم فإن الحرب أحد أدواته ، حيث أداة التعاون السلمي تظهر إلى جانبها ولكل من الأدوات ضوابطهما وشروطهما وليست أحدهما بديلة مطلقة للآخرى.

ويمكن القول : أن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الشعوب في التصور الإسلامي ، قائم على السؤال: متى تكون الحرب ؟ ومتى يكون السلام؟ وهنا يتوجب على الباحثين ومراكز البحث العلمية المختصة في مستقبل الحضارات بين الضفتين الشمالية والجنوبية انطلاقاً من هذا السؤال لبناء رؤية استشرافية للعلاقة بين الشعوب الغربية والإسلامية. إن هذا الصراع سواء كان في صورته العسكرية أو السلمية ليس للقضاء على الآخر أو لتأكيد هيمنة الطرف القوي على الطرف الضعيف أو ثقافة على ثقافة وإنما الصراع يتولد لتحقيق أهداف الدعوة.<sup>٧</sup>

ب- هيمنة الحضارة الغربية على الحضارة الإسلامية:

إن الأرضية التي قامت عليها الحضارة الغربية المعاصرة هي المادية الدنيوية التي لا تعطى الدين في الحياة دورا مؤثرا وتعزله عن التأثير في الناس، بينما تجعل للقيم المادية المكان الأول في حياة الفرد والمجتمع. وقد نتجت هذه المادية اللادينية المعركة بين رجال الدين المسيحي والمتتورين العقلين في أوروبا بسبب الموقف التعسفي لرجال الدين ضد العلم والحقائق العلمية حفاظا على تميزهم الطبقي وسيطرتهم الاجتماعية<sup>٨</sup>.

استطاعت أوروبا أن تفرض نفسها من جوانب حضارتها على تلك الحضارات بالغزو والإحتلال والاستعمار ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان الإستعمار الغربي قد شمل إفريقيا كلها، واحكم سيطرته على شبه القارة الهندية وبقية آسيا. وفي أوائل القرن العشرين أخضع الشرق الأوسط كله لسيطرته مباشرة ومع نهاية عام ١٩٢٠ كانت الامبراطورية العثمانية قد قسمت بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وتمكن الغرب من القضاء على الحضارة الهندية والإسلامية<sup>٩</sup>.

ويذهب هنتجتون إلى أن جوهر الحضارة الغربية يبني على العوامل التالية: التراث الكلاسيكي أي العقلانية الإغريقية والتشريع الروماني، والكاثوليكية والبروتستانتية واللغات الأوروبية بصورها المتباينة والفصل بين الكنيسة وسلطة والدولة وسيادة القانون والتعددية الاجتماعية والهيئات العامة النيابية والنزعة الفردية<sup>١٠</sup>.

عرف تاريخ العلاقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية فترات حوار وتفاعل، وفترات صدام وتصارع، والغزو الحديث للأمة الإسلامية عن طريق الإستعمار وتدمير البنية التحتية للمجتمعات العربية، وهذا ما أكده المارشال بيجو Bugeaud، بقوله جاء الغزو الغربي للدول الإسلامية بالمدفع والنهب الاقتصادي ثم تلاه غزو فكري أرتكز على الثالوث المعروف: الإستعمار والتتصير والإستشراق، لأن غزو العقل يضمن له تأييد أي تبعية الضفة الجنوبية إلى الضفة الشمالية حتى بعد انتهاء الإحتلال العسكري. ولكن بعد انهيار الإتحاد السوفييتي وتفكك المعسكر الشرقي تميز الوضع العالمي بهيمنة الحضارة الغربية التي انضوى تحت لوائها الإتحاد السوفييتي، حتى طمع الغرب أن تسلم له الحضارات وهي: الفردية، والليبرالية، واقتصاد السوق، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، وقد أدرك المفكرون الغربيون أهمية المتغيرات على الساحة الدولية بعد انهيار الشيوعية وانتهاء الحرب الباردة، فدعا بعضهم إلى حوار الحضارات، وركز بعضهم على صدام الحضارات.

كما أسهمت وسائل الإعلام في إبراز النوع الثاني من المفكرين، والتي تتضمن أن الحضارات ستعود إلى نزاعاتها التقليدية ، بسبب الإختلافات الثقافية ، وتركز هذه الرؤية بشكل أساسي على مبدأ التمايز والإختلاف بين الحضارات ، فتؤكد انها لن تلتقي سلميا ومصيرها التصادم والصراع. اتسعت بعد ذلك فصنعت المبادئ الأولى للإستشراق وبلورت نظرة غريبة إلى الشرق وطبيعة العلاقة التي يمكن أن تربطه بالغرب<sup>١١</sup>.



ومن أهم المفكرين الذين نظروا إلى صدام الحضارات يمكن ذكر منهم "فوكوياما وهيتجتون" فالأول بشر "بنهاية التاريخ"، والإنصار النهائي للنسق الغربي، وأما الثاني فحذر من خطر الإسلام، وأوصى الغرب أن يحاول منع أي تحالف بين الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشيوسية، وأن يوثق الأواصر داخل دائرته الحضارية، ويدخل في ضمن هذا التحالف أوربا الشرقية، وحتى اليابان<sup>١٢</sup>.

وينظر هنتجتون للحضارة الإسلامية من زاوية أن الإسلام أو الأصولية الإسلامية ليست المشكلة الرئيسية، بل الإسلام ذاته مفترضا أنه حضارة مختلفة تماما وبالكامل عن جميع الحضارات الأخرى ويؤكد كذلك أن المجتمعات الإسلامية تقع عند خطوط المنازعات الثقافية للعالم ولهذا بدت عنيفة.<sup>١٣</sup>

وهناك من المفكرين من دعى إلى الحوار الحضاري، وقد وجه روجيه غارودي النقد التاريخي والفلسفي والاجتماعي للغرب انطلاقا من مقولة حوار الحضارات، ودعوة الغرب إلى إقامة حوار الحضارات، بقصد تصحيح مساراته والانفتاح على الثقافات غير الأوروبية بعد أن وصل إلى مأزق حضاري، ولتجاوز هذه الأزمة يتوجب التحاور مع الآخر، والتعلم منها، لاكتشاف ما يسميه بالفرص المفقودة، والأبعاد الإنسانية والأخلاقية المطلوبة، التي نمت في الحضارات والثقافات غير الأوروبية وهذه الأزمة التي عاشها الغرب في الربع الأخير من القرن العشرين، إنما ترجع في جذورها حسب رأي غارودي، إلى عصر النهضة، الذي ولدت معه الرأسمالية والاستعمار معاً، وما صاحبه من تنكر وهدم لجميع الثقافات غير الأوروبية، ويمكن تحديد الأسباب التي أدت إلى تقادم الأزمة الداخلية للحضارة الغربية الى:

- تعظيم جانب الفعل والعمل، بالشكل الذي يتحول فيه الإنسان إلى مجرد آلة للإنتاج والإستهلاك، ويفقد جوهره المعنوي والأخلاقي .
  - الإعتماد على العقل واعتباره قادراً على حل جميع المشكلات، بحيث لا توجد مشكلات حقيقية إلا تلك التي يستطيع العلم حلها.
  - الإعتماد على جانب الكم، بحيث يصبح النمو بكونه نمواً كمياً صرفاً في الإنتاج والإستهلاك .
- فالحضارة التي تقوم على هذه الأبعاد حسب وجهة نظر غارودي حضارة مؤهلة للانتحار ومن أجل الخروج من الأزمة الثقافية والحضارية الغربية يتوجب التركيز على:

- ١- الإهتمام بالحضارات اللاغربية في مجال الدراسات الأكاديمية.
- ٢- ضرورة أن يشغل مبحث الجمال، منزلة يعادل في أهميته تعليم العلوم والتقنيات .
- ٣- جعل الإهتمام بالمستقبل، يعادل في أهميته من حيث التفكير والغايات والأهداف أهمية التاريخ وعلم التاريخ.

أما الغاية الأساسية في النقد الذي وجهه غارودي للغرب، أنه أراد أن يدفعه لمراجعة ذاته وتراثه وتاريخه، وأن يغير من نظرتة إلى العالم، ويدخل في مصالحة مع الحضارات غير الغربية،



والاستفادة والتعلم منها، واكتشاف مستقبله المشترك مع بقية العالم، وليس مستقبله الذي لا يرى فيه إلا ذاته. وقيمة هذا النقد أنه يأتي من فكر غربي واسع الثقافة والمعرفة، ومنفتح على الثقافات والحضارات غير الأوروبية، وقد تمثل حوار الحضارات في تجربته الفكرية بتحولاته وتقلباته وانتقالاته .

#### - البوادر الأولى للحوار الحضاري:

تقدم محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية آنذاك باقتراح إقامة الحوار بين الحضارات، في خطابه الذي ألقاه بالجمعية العامة للأمم المتحدة في أغسطس 1998م وتعزيزاً لهذا الاقتراح، شرح قرار الأمم المتحدة رؤيته لحوار الحضارات منطلقاً من الإقرار بالإنجازات الحضارية المتنوعة للبشر، وضرورة بلورة ثقافة تعددية، والقبول بتنوع المخلوقات البشرية، والأخذ بعين الاعتبار أن التعاملات الثنائية بين الحضارات على إمتداد التاريخ الإنساني، كانت مستمرة على الرغم من وجود الموانع النابعة من عدم التسامح والنزاع والحروب، ومع التأكيد على أهمية التسامح في العلاقات الدولية، والدور الرفيع للحوار بمثابة أداة للوصول إلى التفاهم وإزالة تهديدات وتعزيز التعامل والتبادل بين الحضارات. ويتم ذلك من خلال الحوار البناء بين الحضارات على عتبة الألفية الثالثة.

وأسهمت الأمم المتحدة من جانبها بصورة فاعلة وكبيرة في تحريك وتعميم مفهوم حوار الحضارات، وتحويله إلى مفهوم متحرك في مجال العلاقات الدولية، بطريقة بات يأتي على ذكره في المناسبات والاجتماعات الدولية، ويشار إليه في البيانات والتقارير الإقليمية والعالمية، بحيث يمكن القول : أنه لأول مرة يجري هذا المستوى من الاهتمام العالمي بقضية حوار الحضارات.

وأن التطور الذي حصل في هذا الشأن مع مبادرة الأمم المتحدة، هو إحياء مفهوم حوار الحضارات، وتجديد العمل به في مجال العلاقات الدولية، واستخدامه في نقد وتقويض ومحاصرة مقولة صدام الحضارات، وبناء تراكمات فكرية وثقافية حوله، وفتح أوسع نقاش دولي عابر للثقافات والقوميات واللغات حوله، والتأكيد على بناء الجسور وتعزيز الحوار بين الحضارات.

وبالمقابل دعت الجامعة العربية إلى عقد مؤتمر فكري حول حوار الحضارات، فبقدر ما لفتت هذه الأحداث الأنظار لمقولة هنتنغتون في صدام الحضارات، لفتت الاهتمام أيضاً إلى دعوة خاتمي في حوار الحضارات، وأكدت قيمة هذه الدعوة والحاجة إليها في استشراف المستقبل ومع هذه الأحداث كانت البداية الفعلية لحوار الحضارات على مستوى العالم، مع ذلك لم يحصل أي تقدم في صياغة نظرية ، وإنما بقي هذا المفهوم يستعمل للدفاع عن الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية.<sup>14</sup>

**المحور الثاني: الحوار الثقافي بين ضرورة التقارب بين الشعوب الضفتين وتحقيق التنمية البشرية**

-تحديد مفهوم الحوار:

أصل معنى الحَوْر: الرجوع عن الشيء وكذلك الرجوع إلى الشيء. ومن هنا فسروا الحوار والمحاورة بأنهما "مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة". وقالوا في معنى "يتحاورون" أي يتراجعون الكلام" والمقصود بالتراجع هنا تبادل الكلام بين شخصين أو جماعتين.<sup>١٥</sup>

إن الحوار يستند الى وظيفة وهدف محددين بوصفه يدور على موضوعات ما خلقياً واجتماعياً، ثقافياً وسياسياً، اقتصادياً وتقنياً، وأدبياً وفنياً، دينياً وفلسفياً، و..... ومن ثم يستمد مكوناته من طبيعته ومادته، من معايير التي تبعد عن مجرد الحوار للحوار كما يحدث في عالم اليوم لدى بعض الدول التي تقبل بالحوار للإيهام والتضليل بينما تتوي شيئاً آخر... فحينما يصمم كل طرف على أن يغلب رأيه على رأي الآخر فإنه يقع في مناقضة صريحة لمعايير الحوار العقلاني الموضوعي.<sup>١٦</sup>

وهو ما نهى الله عنه في قوله "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن"<sup>١٧</sup>. لقد كان الحوار دائماً المبدأ الأساسي في معاملة المسلم لغيره، إنه حوار يقوم على المجادلة بالتي هي أحسن، وعلى الإقناع بالمنطق السليم الذي لا يستسيغ الربط بين الحضارة والصدام، لأن الصدام يجب ألا يكون مبادرة المسلم، فهو يؤدي إلى الدماء والدمار، بينما الحضارة معناها العمران والسلام.<sup>١٨</sup>

أما حوار الحضارات فهو مصطلح حديث دعت إلى استعماله وشيوعه العلاقات الدولية وتشابك المصالح بين الأمم. فحوار الحضارات لا يتطرق إلى موضوعات العقيدة ولا العبادات وإنما يبحث في منظومات القيم وفي التقاليد الاجتماعية وفي حقوق الإنسان بين الديانات وحقوق المرأة والطفل وموقف الديانات ومن شؤون البيئة، وما شاكل ذلك من قضايا.<sup>١٩</sup>

### الحوار الثقافي في الشراكة الأوروبية متوسطة :

تعد الثقافة الدعامة الأساسية للتعاون الأوروبي متوسطي منذ عملية برشلونة التي أطلقت في نوفمبر ١٩٩٥، نقطة انطلاق الشراكة الأوروبية متوسطة لإطار واسع من العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي والشركاء من جنوب البحر الأبيض المتوسط. وهذا حسب ما جاء المادة ٦: نحو تنوع ثقافي متاح للجميع إلى جانب كفاءة التداول الحر للأفكار عن طريق الكلمة والصورة، ينبغي الحرص على تمكين كل الثقافات من التعبير عن نفسها والتعريف بنفسها. ذلك أن حرية التعبير، والتعددية وسائل الاعلام، والتعددية اللغوية، والمساواة في فرص الوصول الى اشكال التعبير الفني والمعارف العلمية والتكنولوجية، بما في ذلك المعارف في صورتها الرقمية، وإتاحة الفرصة لجميع الثقافات في أن تكون حاضرة في وسائل التعبير والنشر، وهي كلها ضمانات للتنوع الثقافي.<sup>٢٠</sup>

وكان الحوار بين الثقافات في صلب الركيزة الثالثة لعملية برشلونة، حول الشراكة الاجتماعية والثقافية والإنسانية. ولقد أدرك الزعماء السياسيون من الشمال والجنوب أن حوض البحر



الأبيض المتوسط هو مهد وملتقى الحضارات، وأنه على مر التاريخ، قدمت شعوب هذه المنطقة مساهمات مهمة جداً في الإثراء المتبادل بين الثقافات.

نجد أن من الصفات البارزة و المميّزة لإطار برشلونة هي التعددية الثقافية، و يعد هذا الأمر حتمية أولى، لأن الأطراف المشاركة في إطار برشلونة يمثلون الديانات السماوية الثلاثة: الإسلام، المسيحية و اليهودية- صاحبة الثقافات و الحضارات القديمة - فمنطقة المتوسط كانت منذ القدم ملتقى للحضارات، بل و حتى إسمها مستمد من إعتقاد كونها مركز العالم. و نجد أن وثيقة برشلونة تعترف بالتقاليد الثقافية و الحضارية للضفتين، كما يعترف البرلمان الأوروبي هو الآخر أن منطقة البحر الأبيض المتوسط كانت على مر السنين ملتقى للحضارات ،و يؤكد على كون ما يسمى بالحضارة المتوسطية نتاج هذا الإمتزاج مما يجعل من الحوار بين هذه الثقافات<sup>٢١</sup> عامل يساهم في تعزيز التفاهم المتبادل بين شعوب الضفتين وتحقيق الامن والاستقرار في المنطقة المتوسطية .

طرحنا الدعوة لحوار الثقافات إلا أنه ليس هناك من الأدلة في واقع السياسات الأوروبية والغربية الرسمية بصفة عامة على أن حوار الثقافات هو الأساس في تشكيل رؤية هذا الجزء من الغرب للعالم، ومن أجل نجاح الحوار الثقافي بين الضفتين الشمالية والجنوبية لابد من تفعيل المقومات الآتية والتي تكمن في :

١- لابد من أن ندرك أن حوار الحضارات هو موضوع سياسي يقوم على قاعدة ثقافية تستدعي الدين بالضرورة . ومن ثم تحسن توظيف البعد الثقافي كأداة من أدوات السياسة الخارجية ، كما يستدعي تحسين صورة الإسلام أمام الغرب.

٢- إذا كان حوار الحضارات لا يمكن أن يتم بمعزل عن حالة ميزان القوى ، وأن المجتمع الدولي قائم على هيمنة القطب الأحادي والمتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية على العالم، إذ يتوجب أن نتوازن معه فكرياً وقيماً ، وذلك انطلاقاً من منظومة قيم أصيلة يمكن أن تسهم في التجديد الثقافي العالمي.

٣- يجب ادراك أن الحوار له مستويات متعددة كلها مهمة ويمكن أن تؤدي دوراً في تغيير البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فيوجد حوار المشروعات المشتركة، حوار تبادل الخبرات، حوار الثقافات بين المتخصصين ، حوار بين المنظمات غير الحكومية .

٤- يجب أن ندرك ضرورة عدم الخلط بين موضوعات الحوارات السياسية وموضوعات الحوارات الدينية والثقافية وبين الأبعاد الثقافية<sup>٢٢</sup>.

#### المسار الإجماعي و الثقافي بين الحضارتين :

جاء في الشق الإجماعي و الثقافي من نص إعلان برشلونة مايلي: أن الأطراف المشاركة تعترف بأن في جميع أنحاء المتوسط تقاليد خاصة تتوافق مع الثقافات و الحضارات المختلفة، و لذلك يدعو المشاركين إلى حوار بين هذه الثقافات، فضلاً عن المطالبة بالتعاون و التبادل

الإنساني والعلمي والتقني كأساس وجوهر التفاهم بين أطراف المتوسط، إن الإعراف بالتنوع الثقافي و ضرورة التفاهم يرجع إلى ظاهرة الهجرة ، بحيث أقر الطرفين المتوسطيين بأهمية الدور الذي تؤديه الهجرة في العلاقة بين الضفتين. و في هذا الصدد إتفقت الدول المتوسطية المشاركة على التعاون لتقليل ضغوط حركة الهجرة .

إن الهدف من إقامة شراكة إجتماعية و ثقافية و إنسانية هو تنمية الموارد البشرية و تعزيز التفاهم بين الثقافات و التبادلات بين المجتمعات المدنية و كذلك التعاون اللامركزي في التعليم و التدريب و الشباب و الثقافة و وسائل الإعلام و غيرها. و قد أشارت الإتفاقية في هذا الصدد أنها تهدف إلى تحسين الأحوال المعيشية و الإجتماعية للدول المشاركة في هذه الإتفاقية و العمل المشترك لزيادة فرص العمل والحد من البطالة فيها. و كذلك تقليل فجوة التنمية في المنطقة الأورو متوسطية، هذا فضلا عن الإسراع في الوصول بالدول المشاركة إلى تنمية إجتماعية و إقتصادية قوية و متوازنة.<sup>٢٣</sup>

وهذا ما تم تأكيده في المادة ٣ من إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي "التنوع الثقافي بوصفه عاملا من عوامل التنمية ، ان التنوع الثقافي يوسع نطاق الخيارات المتاحة لكل فرد فهو أحد مصادر التنمية، لا بمعنى النمو الاقتصادي فحسب، وإنما من حيث هي أيضا وسيلة لبلوغ حياة فكرية وعاطفية وأخلاقية وروحية مقبولة". فضلا عن المبادئ التي جاءت بها المبادرة الأوروبية لبيان برشلونة حول الإحترام المتبادل ما بين الثقافات و الديانات السماوية ، تضائلة في أوروبا عندما تزايد عدد اللاجئين المسلمين الى الدول الأوروبية، لاسيما عندما جاءت دعوة الفاتيكان لتحذر من التهديد الإسلامي في أوروبا ليصبح كل مسلم ملزم بتقديم الواجبات على الحقوق لتتأكد بذلك مقولة المصالح قبل القانون و المبادئ ، يتضح من هذه الإتفاقية أن مصالح الدول الأوروبية تبدو أكبر من مصالح الدول الأخرى الشريكة، و يبقى على دول الضفة الجنوبية إذا أرادت الحصول على أكبر قدر من المزايا أن تقوم بإجراء مفاوضاتها مع الطرف الأوروبي بشأن الشراكة الأورومتوسطية بصفة مجتمعة بدلا من إجرائها منفردة.<sup>٢٤</sup> كما يتوجب على الدول الضفة الجنوبية أن تتفتح على الآخر في صميم مبدأ المواطنة المستندة إلى لحقوق والواجبات، وإلى العدل والتكافؤ والكفاءة لإنتاج ثقافة مشتركة أساسها الحوار الفعال الذي تسوده روح التسامح والتوازن.... وهي الثقافة التي تمكنهم من الحوار مع ثقافة الآخر وفلسفته والتفاعل معها لتحقيق التنمية البشرية.<sup>٢٥</sup>

إذا كانت بعض الاتجاهات قد ارتأت أن البعد الثقافي للشراكة يهدف إلى بلورة ثقافة متوسطة، تمثل من وجهة نظر المصالح الأوروبية شرطا مسبقا وضروريا لتفعيل التعاون السياسي والاقتصادي الأورومتوسطي، وعلى النحو الذي يعالج مصادر التهديد للأمن الأوربي، وإذا كانت اتجاهات أخرى قد رفضت أو تحفظت على هذا البعد الثقافي وعلى هذه الأهداف للحوار والتعاون الثقافي، إلا أن وقائع التاريخ والجغرافيا والسياسة تفترض أن يسعى جانبا المتوسط إلى ترتيبات إقليمية وعبر إقليمية لإدارة مشاكل العلاقات بينهما، وأن تتبلور مجموعة من الآراء -الوسطية- حول سبل

تفعيل البعد الثقافي، ولاسيما من حيث ارتباطاته بالبعدين السياسي والاقتصادي، سواء ما يتصل منها مباشرة بالساحة العربية- المتوسطية (الديموقراطية وحقوق الإنسان والتنمية الرأسمالية وتحرير التجارة)، أو ما يتصل بالساحة الأوروبية الهجرة غير الشرعية تجاه أوروبا.

ويمكن تلخيص الرؤى للحوار الثقافي بين الضفتين:

-التقدم المتزامن على محاور التعاون الأوروبي المتوسطي : والذي يتضمن المجالات التالية السياسية والاقتصادية والثقافية. فإذا كان إعلان برشلونة لم يتضمن أية إشارة عن الرابطة بين أبعاده الثلاثة، وإذا كان البعض يرى أن دفع التعاون يساعد على التوصل لحلول للقضايا السياسية، يمكن حدوث تقدم حقيقي في مجال التعاون الثقافي ما لم يصاحبه تقدم مماثل على المحورين السياسي والاقتصادي، ومن ثم في حالة عدم التوصل إلى حل للقضايا السياسية والاقتصادية الرئيسية، فإن الحوار الثقافي يساعد في تقريب وجهات النظر بين الدول في قضايا مختلفة .

- دفع الأطراف إلى تبني منظور وتصور إيجابي للمزايا المشتركة المتبادلة . فإن التقدم في مجال التعاون الثقافي مرهون بحدوث تقدم في مجال تحقيق مشاركة اقتصادية متكافئة، وحل الصراعات بين الشركاء المتوسطيين، وتحقيق التعاون السياسي والأمني بين شمال وجنوب المتوسط. ولكن من ناحية أخرى فإن المعضلة تكمن في ارتباط البعد الثقافي بالبعد السياسي في المنظور الأوروبي، على نحو قد لا يساعد على تحقيق التقدم في حل المشاكل وفق منظور جنوب المتوسط. وهنا تبرز مثلاً: العلاقة مع قضية الديمقراطية وحقوق الإنسان<sup>٢٦</sup>.

-إن دعوة الاتحاد الأوروبي للديموقراطية وحقوق الإنسان إنما ترتبط بحقيقة الإدراك الجماعي الأوروبي لمصادر جديدة لتهديد الأمن الأوروبي، ذات الأبعاد الثقافية؛ مثل "الأصولية الإسلامية"، إلا أن الرؤية الأوروبية عن الاستقرار السياسي في جنوب المتوسط إنما تعني استقرار نظم الحكم القائمة (في مواجهة المعارضة الإسلامية )، وهي أساسا غير ديموقراطية وفقاً للمعايير الغربية، ما دامت لا تمنع - هذه الحكومات، في التعاون مع الإتحاد الأوروبي .

وقد واجهت هذه الرؤية الأوروبية انتقادات عديدة؛ نظرا لما تحمله من تناقضات مع معايير الديمقراطية الغربية ذاتها، والثمن هو عدم وصول حركات المعارضة الإسلامية للحكم . ومما لا شك فيه أن هذا المنظور الأوروبي عن التحديث السياسي مصحوبا بالتحديث الاقتصادي والتحديث الاجتماعي في مجالات التعليم والإعلام والأداب والفنون - "إنما يعبر عن رغبة أوروبية أكيدة في توصيل مجموعة من القيم المستمدة من الثقافة العقلانية العلمانية الأوروبية كبديل لأيديولوجية التيارات الإسلامية المتطرفة التي تدعو إلى مواجهة الغرب وقيمه العلمانية (التغريب) . ولهذا فإن الدعوة الأوروبية إلى التعاون الثقافي أثارت قضايا خلافية بين الاتحاد الأوروبي من جانب والدول العربية من جانب آخر، وإذا كانت بعض قوى المجتمع المدني والنخب الفكرية قد ارتأت في الدعوة الأوروبية لحقوق الإنسان والديموقراطية سبيلاً



للتخلص من نظم الحكم الديكتاتورية في المنطقة، فإن قوى أخرى رأت أن تطبيق مبادئ النموذج الغربي الليبرالي للديموقراطية يختلف من دولة إلى أخرى وفق أوضاعها الخاصة واختلافها من حيث أطرها الحضارية والثقافية.

فإن تحقيق أهداف ثقافية أيضا متصلة بمنظومة القيم السائدة وكيفية تغييرها سعيا للتغلب على المصادر الجديدة لتهديد الأمن الأوربي -وفقاً لمنظور الإتحاد الأوربي .وحيث أن مصادر هذا التهديد لا تتبع من جنوب المتوسط فقط، ولكن تتبع أيضا من الداخل الأوربي، متمثلة في الهجرة العربية والمسلمة من جنوب وشرق المتوسط، لذا فإن للعملة وجهتها الاخرى، اذ تؤثر الهجرة على الهوية الأوربية ذاتها وعلى منظومة القيم الأوربية، ومن ثم أضحي الحوار الثقافي والتعاون الثقافي المتوسطي يمتد إلى هذه الساحة أيضا . وهو يثير ما يتصل بمراجعة حال العلمانية في الدول الأوربية، كما أثار -على صعيد جنوب المتوسط من قبل، مراجعة حال "الإسلامية".

يكتسب مفهوم تعدد الثقافات في مقابل مفهوم الثقافة المتوسطية وضعهما كتعبير عن نمطين للعلاقة بين جانبي المتوسط ، في حين يبرز مفهوم التعددية الثقافية في مواجهة مفهومي الاستيعاب والاندماج كتعبير عن نمطين للعلاقة داخل المجتمعات الأوربية<sup>٢٧</sup>. وهذا ما يتطلب المعالجة من خلال الحوار الثقافي المعمق والهادف إلى وضع معالجات ومشاركات تخدم التعاون السياسي والأمني بين شمال وجنوب المتوسط لما فيه خدمة الطرفين.

### المحور الثالث: مستقبل العلاقة بين الحضارتين في ظل الشراكة الأورومتوسطية.

إن البحث والنقضي والاستقراء بمستقبل العلاقة بين الضفتين الشمالية والجنوبية في ظل الشراكة الأورومتوسطية، يعد أمرا صعبا، نظرا لكون هذه الشراكة حديثة النشأة ، فالحديث عن نجاح الحوار الثقافي بين الدول الشمالية والدول الجنوبية لضفتي البحر المتوسط مرهون بترسيخ المبادئ والأهداف المنصوص عليها في الاتفاقيات بين الطرفين الهادفة الى تعزيز التعاون الاقتصادي والسياسي وتحقيق الأمن والاستقرار والتنمية في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط مركز النقل الحضاري والدولي . في هذه الدراسة سنحاول عرض تصورات لمستقبل العلاقة للشراكة الأورومتوسطية من خلال الحوار الثقافي، اعتمادا على ثلاثة سيناريوهات لتطور الشراكة الأورومتوسطية ومتطلبات تفعيل التعاون وتحقيق التنمية في ظل التحديات الأمنية الراهنة التي تواجهها كل دول الضفتين الشمالية والجنوبية وهي:

#### ١-السيناريو المحتمل وقوعه:

هذا السيناريو قائم على استمرار الوضع القائم بين دول الشمال المتوسطي مع حدوث تغيرات نسبية إيجابية كانت أم سلبية في مسار الشراكة الأورومتوسطية من خلال ما تقترحه المبادرة الجديدة " لمسار برشلونة و الإتحاد من أجل المتوسط"، فضلا عن الاتفاقيات الموقعة بين الطرفين أي بين الإتحاد الأوروبي و دول شمال إفريقيا. إذ أن العلاقة المتمثلة أساساً في الإتحاد الأوروبي و دول الجنوب عامة قبل عقد مشروع الشراكة الأورومتوسطي في إطار إعلان برشلونة ١٩٩٥ سيبقى على ما كان عليه في



السابق، فالإتحاد الأوروبي سيستمر في إكمال سياسته التكاملية و الاندماجية و إقامة سياسة أوروبية مشتركة و متناسقة سواءً تعلق الأمر بالجانب السياسي و الأمني أو الاقتصادي وحتى الاجتماعي والثقافي.

وإذ تسعى دول الضفتين على توحيد موقفها في إطار حوار الثقافات و الحضارات و بناء أسس الديمقراطية و حقوق الإنسان من أجل إيجاد بيئة آمنة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، بالمقابل نجد أن هناك استمرار في هشاشة التعاون و التنسيق بين دول الضفة الجنوبية ، الذي يتميز بالصبغة التنافسية و بروز النزاعات الداخلية وكذلك استمرار الصراعات بين الدول المجاورة مما انعكس سلبا على جانب التعاون و التكامل. لذلك تبقى العلاقات الأوروبية المتوسطية قائمة على اختلال في التوازن بين الضفتين.

ونظرا لما تمر به الضفة الجنوبية من ضعف الأداء الوظيفي للمؤسسات الرسمية ، فضلا عن تفاقم الأزمات داخل أنظمة الحكم في الدول العربية ، وكذلك استمرار أزمة الثقة قائمة بين الشعب والحكام نتيجة غياب الديمقراطية ، مما يعرقل عملية التعاون بين الضفتين ، إذ يفرض الإتحاد الأوروبي على دول الجنوب تبني مبادئ الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وهو ما يسمى بالمشروطة السياسية.

كما أن التباين الثقافي المرتبط بالتنافس على الهيمنة الدينية والفكرية في المتوسط، وما يترتب عنها من إرث عميق من الحساسية وسوء الفهم ، فضلا عن الصورة التي يرسمها كل طرف للآخر والتي تتركس غياب الحوافز للتفكير بالتضامن، وأن مشروع الشراكة يهدف الى ايجاد الهوية المتوسطية، كل ذلك يدفع باتجاه اعطاء اهمية للتقارب الحضاري المتمثلة في البعد الاجتماعي-الثقافي من اجل تعزيز التعاون بين شعوب الضفتين.<sup>٢٨</sup>

وفكرة التعددية الثقافية تعني في الأساس قبول واحترام الاختلافات الثقافية والعمل على إنشاء قنوات للاتصال بين الثقافات، ولا ينفي ذلك بالطبع وجود بعض القيم المشتركة بين هذه الثقافات، ولكن التفسير والتطبيق العملي لهذه القيم لابد وأن يختلف من ثقافة إلى أخرى.

وبالمقابل توجد خبرات وجهود الجانب العربي في إدارة حوار الثقافات والإنتاج المعرفي وعلى ضوء الاعتراف بحقيقة وخطورة التحديات الثقافية للعولمة والتي تواجه جنوب المتوسط (والعالم الإسلامي برمته) وتحديدًا منذ ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، وعلى ضوء الاعتراف بضرورة تصميم استراتيجية للعمل الثقافي الإسلامي في الغرب وتجاهه، تعكس أهداف مشروع حضاري لإعادة بناء العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب، وتقدم تصورات عن سبل مواجهة العالم الإسلامي للتحديات الثقافية في القرن الواحد والعشرين في ظل خصائص النظام الدولي القائم.<sup>٢٩</sup>

على رغم من المبادرات التي يقدمها الاتحاد الأوروبي في ظل الشراكة إلا أنها تعد بمثابة استثمار جديد، إذ تسهم هذه المبادرة الأوروبية في إرساء نظام متوسطي جديد، تحدد العلاقة بين دول الشمال التي كانت معظمها مستعمرة لدول الجنوب، مع توضيح آليات التعامل بين الضفتين، لتبيان الواقع الذي تمر به دول الجنوب تكريسا لتبعيتها لدول الشمال، وبالتالي فهي نمط جديد للتعامل الرأسي وامتداد لصيغة العلاقات الاقتصادية غير المتكافئة بين الضفتين.

ويعد هذا السيناريو أقرب إلى الواقع لأنه يقوم على تحليل واقعي يجمع بين إبداء التفاؤل تجاه المشاريع القابلة للتحقيق و التي لا ينقصها سوى توحيد الجهود ووجود الإرادة النابعة من الرغبة لدى أطراف الضفتين في تجسيدها، و إستبعاد ما يصعب تحقيقه، إن هذا السيناريو يدفعنا إلى فهم أن تحقيق الأمن و الإستقرار في منطقة البحر الأبيض المتوسط<sup>٣١</sup> يتم من خلال التركيز على الحوار الثقافي بين الدول المنطقة، الأمر الذي يسهم في تعزيز العلاقة بين الشعوب وحل الأزمات بطرق سلمية، فضلا عن تكثيف الجهود بين دول الاتحاد الأوروبي ودول الشمال إفريقيا لمواجهة التهديدات العابرة للقومية، إذ ان تحقيق السلام والأمن في المنطقة يبقى مرهون بتحقيق التكامل و التوافق بين المشاريع المطروحة و تجسيدها تطبيقيا.

## ٢ - سيناريو مرغوب فيه (التغيير الإصلاحي):

وهو السيناريو الأكثر تفاؤلا، إذ يتوقع حدوث عدة تطورات إيجابية في المنطقة، حيث يسعى الإتحاد الأوروبي إلى توطيد علاقاته مع دول الضفة الجنوبية ولاسيما دول شمال إفريقيا، من خلال اتخاذ مبادرات وخطوات في صالح الدول على كافة المستويات والميادين، وفي مقدمة ذلك تعزيز المسار الديمقراطي ودعم حقوق الإنسان ودعم النشاط الأكثر فعالية للمجتمعات المدنية، في محاولة لإقامة علاقات شراكة أكثر توازنا من خلال إقامة حوار جاد وفعال مع الضفة الجنوبية، وإشراكه في اتخاذ القرارات التي تخص المواضيع ذات المصلحة المشتركة بين الطرفين.

وحتى يكتب النجاح للشراكة الأوروبيةمتوسطية وتجسيد المسعى، عليها أن تلبى المصالح والطموحات المشروعة للجانبين، لذلك يتطلب منهما الإسترشاد ببعض المبادئ الحاكمة التي يتم الالتزام بها، حيث يقتضي الأمر على الطرفين تغليب منطق العمل الجماعي والمصلحة العامة والمتبادلة للنجاح من خلال ارتكازها على المساواة، العدالة، الندية، التكافؤ بين الضفتين مع الإحترام المتبادل للخصوصية الثقافية والشخصية والهوية الحضارية ونظم القيم والعادات والتقاليد السائدة لكل طرف باعتماد الحوار الحضاري وتكثيف التعاون والتقارب على جميع الأصعدة<sup>٣١</sup>.

وكما ترى الخبيرة ماريا أنخيلاروكي أن تحقيق ذلك يكون رهينة قبل كل شيء بوجود إرادة لدى الدول المشاركة. بمعنى آخر فإن فرص نجاح " الإتحاد من أجل المتوسط " رهينة بوجود إرادة مشتركة من طرف دول الضفة الجنوبية للمتوسط و كذا الإتحاد الأوروبي لتفعيل القرارات و المشاريع التي أقرتها قمة باريس<sup>٣٢</sup>، وأن نتصور وجود إرادة فعلية و حقيقية لدى جملة الشركاء رغم كثرتهم تمكنهم من



يُجاد صيغة للتنسيق و التشاور و كذا توحيد الرأي في إتخاذ القرارات و تطبيقها مما يدفع بالشراكة نحو الأمام و يعمل على تحسن طبيعة العلاقة التي تربط بين أطراف الشراكة، بمعنى تصبح العلاقة تشاركية تقوم على المساواة بين الأطراف في الحقوق و الواجبات.

إن توفير تقدم متوازي لجميع جوانب الشراكة وفقا لمستويات غير متفاوتة من خلال التعايش والتفاهم المتبادل بين الطرفين حول أمورهم المشتركة ، كما يجب أن يكون تحرير المبادلات التجارية بين الضفتين منسقا كما ونوعا، ومرتبطة مع الهدف الأساسي الذي من المفترض أن تبنى عليه خطة الشراكة وهي التنمية المستدامة والسريعة والمتقاربة، ضرورة توفير رؤوس الأموال الضرورية لإنجاح الشراكة وإخراجها من طابعها النظري مع ضرورة التكافؤ في المستوى العلمي والتكنولوجي، الأمر الذي يقتضي أكثر جدية وخاصة من طرف الإتحاد الأوروبي في مجال نقل التكنولوجيا<sup>٣٣</sup>.

إن هذا سيناريو المحتمل لمستقبل الشراكة الأوروبيةمتوسطية، يتصف بالتفاؤل الزائد و البعيد عن واقع الأوضاع السائدة في المنطقة العربية التي تشهد حالة التغيير في طبيعة أنظمة الحكم

٣-سيناريو غير مرغوب فيه:

يقوم هذا السيناريو على مفهوم الانعزال و الانكفاء ودخول متغيرات مهمة (ثقيلة) غير مرئية، أي أن دول الإتحاد الأوروبي وبعد تحقيقهم لخطوات متقدمة من التوسع و التكامل الاقتصادي، الاجتماعي، الثقافي، السياسي والأمني وصولاً إلى المؤسساتي، ستتغزل على نفسها ، فضلا عن إمكانية استغناء الإتحاد الأوروبي أو بالأحرى التقليل من تعاملاته مع الضفة الجنوبية و عدم إعطائها قيمة مادية و معنوية، خاصة بعد أنفتاح أوروبا الغربية على أوروبا الشرقية بعد انضمام الدول العشرة سنة ٢٠٠٤ و مع إمكانية انضمام روسيا (الوريث الشرعي للإتحاد السوفيتي) الأمر الذي سيمكن أوروبا من تحقيق قوة أوروبية في شتى المجالات من دون اللجوء إلى الدول الجنوبية.

وفي مقابل ذلك نجد أن الدول الجنوبية تكفتي بذاتها ، فتعتمد الدولة على قدراتها في مواجهة التحديات الداخلية الخارجية، كما أنه بالإمكان أن تصل إلى الحكم فيها التيارات الإسلامية المتشددة، والمعادية للفكر الغربي ، فيحتمل وصول مثل هذه التيارات والأحزاب السياسية إلى سدة الحكم في الدول الجنوبية ، ونتيجة للأوضاع التي تعرفها شعوب هذه الدول من خيبة أمل في أنظمتهم و مما تعانيه من ظروف معيشية قاسية وحرمان و فقر وبطالة، يمكن لها أن تتمسك بهذه التيارات التي تدعو إلى المساواة والعدالة وحقوق الإنسان كما حدث في معظم الدول التي يطلق عليها بدول الربيع العربي ، الأمر الذي يشجع وصول الحركات الإسلامية إلى سدة الحكم ، والتي تسعى الى قطع العلاقة مع دول الإتحاد الأوروبي ومحاولة السعي لإقامة علاقات شراكة عربية - عربية، جنوب- جنوب وكذلك مع العالم الإسلامي.



إن أوروبا رغم قوتها المتعاضمة وخطواتها التكاملية المتسارعة، إلا أنها تبقى بحاجة للتعامل مع دول الضفة الجنوبية ولاسيما دول المغرب العربي، نظرا لما تصبو إليه في أن تكون قطبا عالميا مميزا في إطار العلاقات الدولية الراهنة ، نسق تبادل مع أوروبا، وبصفة أخص مع أوروبا الجنوبية(فرنسا، إيطاليا، إسبانيا...) والتي تضم الدول الإستعمارية السابقة التي تعد جزءا من الإتحاد الأوروبي. وما التواجد العربي والإسلامي وخاصة المغاربي في الدول الأوروبية لخير دليل على ذلك، فضلا عن ذلك التواجد الأمريكي في المنطقة وخاصة المغرب العربي الذي تسعى من وراء ذلك الولايات المتحدة الأمريكية إلى إقامة علاقات معه، وهذا يدخل ضمن الإستراتيجية الأمريكية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي يهدد المصالح الأوروبية في منطقة نفوذها.<sup>٣٤</sup>

إن هذا السيناريو تشاؤمي التصور للشراكة الأورومتوسطية، من خلال إخفاق مبادرة الإتحاد من أجل المتوسط، يعد سيناريو سلبي إلى درجة بعيدة ، من حيث إنه إستبعد وجود تحسينات في الأوضاع التي قد تعرفها المنطقة. مما يجعل من مستقبل المتوسط وأفاق جهود التعاون عبارة عن اقتراحات يصعب تطبيقها، كما أن هذا السيناريو لا يعترف بالجهود المبذولة رغم كونها محدودة.<sup>٣٥</sup>

#### الخاتمة:

إن الدعوة إلى الحوار الثقافي والتعاون الثقافي بين جانبي المتوسط ليست المرادف للحديث عن وجود ثقافة متوسطة موحدة لها قيمها ومعاييرها ورموزها التي تعكس توحيد نمط التفكير، ذلك أنها تفرض وجود قواسم مشتركة لثقافية متوسطة، إلا أنها لا تستطيع أن تلغى حقيقة تنوع واختلافات ثقافات الشعوب المتوسطية التي تمثل العقيدة الدينية عنصرا أساسيا في تكوينها . ومن ثم فلا يجب أن يكون المقصود بالحوار الثقافي للشراكة إدماج ثقافات شعوب المنطقة في ثقافة متوسطة موحدة، ولكن يجب أن يهدف الحوار الثقافي والتعاون الثقافي إلى تدريب الشعوب على التعايش السلمي والإدراك المتبادل والاحترام المتبادل للخصوصيات الثقافية، وبناء جسور ثقة حقيقية بين جانبي المتوسط وصولاً إلى درجة أفضل من التعاون والامن.

إذ أسهم الحوار الثقافي بين الضفتين في ظل الشراكة الأورومتوسطية في إيجاد مخرج سلمي للصراع من شأنه أن ينعكس ايجابيا على علاقة الشراكة الأورومتوسطية. على هذا الأساس تبقى منطقة البحر الأبيض المتوسط في إنتظار تجسيد و تطبيق برنامج حقيقي وجدي ينظر في الموضوعات الحساسة التي يمكن ان تهدد كيان دول الضفتين ، وكذلك البحث من خلال الحوار الثقافي والقنوات الاخرى في جذور الأسباب التي تقف وراء التلكؤ في التعاون ودراسة المعوقات لمعالجتها و تحقيق الغرض المنشود الذي يتلخص في إقرار السلم والامن والتنمية بين ضفتي المتوسط.

الهوامش .



- ١- جعفر شيخ ادريس، صراع الحضارات بين عولمة وبعث اسلامي. الرياض: مكتب مجلة البيان، ٢٠١٢، ص ١٠.
- ٢- أحمد طالب الإبراهيمي، "حوار الحضارات". مجلة العربي، الكويت، ع ٤٧٧، ١٩٩٨، ص ٢٠.
- ٣- عبد الرحمن خليفة، فضل الله محمد اسماعيل، الإيدولوجية والحضارة والعولمة. مصر: دار الجامعة الجديدة، ٢٠٠٨، ص ١٦٢.
- ٤- القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية ١٣.
- ٥- زكي الميلاد، تعارف الحضارات: الفكرة، الخبرة والتأسيس، "مجلة الحوار الثقافي". مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي وفلسفة السلم، الجزائر: جامعة مستغانم، عدد خريف وشتاء، ٢٠١٢، ص ١٨. ينظر الرابط:  
<http://diacicult-ar.univ-mosta.dz/doc/dialogue%20culturel%20ar%202013.pdf>
- ٦- أحمد طالب الإبراهيمي، مرجع سبق ذكره. ص ٢٣، ٢٦.
- ٧- نادية محمود مصطفى، جدالات حوار/صراع الحضارات: إشكالية العلاقة بين السياسي-الثقافي في خطابات عربية وإسلامية. مركز الحضارة للدراسات السياسية، جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٧، ص ٧.
- ٨- عبد القادر طاش، أزمة الحضارة الغربية والبديل الإسلامي. ص ٩. ينظر الرابط:  
<http://www.almeshkat.net/books/open.php?cat=49&book=8565>
- ٩- جعفر شيخ ادريس، مرجع سبق ذكره، ٢٠١٢، ص ١٨.
- ١٠- ديبتر سنغاس، تر: شوقي جلال، الصدام داخل الحضارات التقاهم بشأن الصراعات الثقافية. ط١، القاهرة: ٢٠٠٨، ص ١٣٦.
- ١١- صالح إبراهيم، أزمة الحضارة العربية في أدب عبد الرحمن منيف، ط١، المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤، ص ١٧٨.
- ١٢- أحمد طالب الإبراهيمي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧.
- ١٣- ديبتر سنغاس، تر: شوقي جلال، مرجع سبق ذكره، ١٣٦.
- ١٤- زكي الميلاد، مرجع سبق ذكره، ص ٩- ١٣.
- ١٥- خالد الكركي، "حوار الحضارات.. تحرير المصطلح والمنهج"، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي. الأردن: دار الفارس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ص ٢٠.
- ١٦- نادية محمود مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص ٨.
- ١٧- القرآن الكريم، سورة النحل، الآية: ١٢٥.
- ١٨- أحمد طالب الإبراهيمي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧.
- ١٩- خالد الكركي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠ - ٢٣.
- ٢٠- أنظر إلى: إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي "ثروة العالم الثقافية هي تنوعه في الحوار"، المؤتمر العام دور ٣١ باريس، ٢ نوفمبر ٢٠٠١.
- ٢١- مصطفى بخوش، حوض البحر الأبيض المتوسط بعد نهاية الحرب الباردة (دراسة في الرهانات و الأهداف)، ط١، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2006، ص ١٣٥.
- ٢٢- نادية محمود مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص ١٥.



- ٢٣- د.سلوى محمد مرسي، "المشاركة الأورو-عربية مآلها و ما عليها وسبل تفعيلها"، الندوة العلمية الدولية حول التكامل الاقتصادي العربي كآلية لتحسين و تفعيل الشراكة العربية الأوروبية، الجزائر، 9-8 ماي ٢٠٠٤، ص١٤٧.
- ٢٤- برد رتيبة، "الحوار الأورومتوسطي من برشلونة الى منتدى ٥+٥"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية والاعلام، جامعة الجزائر-بن يوسف بن خدة، ٢٠٠٩، ص١٤٨.
- ٢٥- حسين جمعة، "ثقافة الحوار مع الآخر" مجلة جامعة دمشق للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٤، ع٣-٤، ٢٠٠٨، ص١٥.
- ٢٦- نادية محمود مصطفى، "البعد الثقافي للشراكة الأوربية- المتوسطة الدوافع، الأهداف، المسار: رؤية نقدية"، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي، نحو تفعيل التعاون الاقتصادي بين دول حوض البحر المتوسط. القاهرة، ٢٠-٢٢/١١/٢٠٠٤، ص١٩.
- ٢٧- المرجع نفسه، ص ٢٠.
- ٢٨- نصير العرابوي، "مستقبل الشراكة الأورومتوسطية"، مجلة العلوم الاجتماعية. الجزائر: جامعة سطيف ٢، ع ١٧، سبتمبر ٢٠١٣، ص٢٩٢.
- ٢٩- نادية محمود مصطفى، "البعد الثقافي للشراكة الأوربية- المتوسطة الدوافع، الأهداف، المسار: رؤية نقدية"، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢.
- ٣٠- برد رتيبة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٧.
- ٣١- نصير العرابوي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٠.
- ٣٢- منصف السليمي، "تجاح الإتحاد من أجل المتوسط يتوقف على إرادة دول ضفتي المتوسط"، ينظر الرابط: <http://www.dw.de/dw/article/14.07.2008/0,2144,3484668,00>.
- ٣٣- نصير العرابوي، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٢.
- ٣٤- المرجع نفسه، ص ٣٢٣.
- ٣٥- برد رتيبة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٣.